العدد 6 شهر آب 2027

مجلة كلية الطف
للعلوم الانسانية والاجتماعية

الجزء 2

ISSN (2959-0256)

السياسة الخارجية للدولة الإدريسية الناشئة: استراتيجيات البقاء والتمدد في المغرب الأقصى (789–804م)

م . م . عباس جواد كاظم
المديرية العامة لتربية محافظة ذي قار
Anaaranaar26@gmail.com

The foreign policy of the emerging Idrisid state: Strategies for survival and expansion in the far west of Morocco (789–804 AD)

Abbas Jawad Kadhim
General Directorate of Education of Dhi Qar Governorate

الملخص

تحلل هذه الدراسة السياسة الخارجية للدولة الإدريسية الناشئة في المغرب الأقصى (789–804م)، وتطرح فرضية مفادها أنها لم تكن سلسلة من الإجراءات التفاعلية، بل كانت استراتيجية مزدوجة ومحسوبة مصممة للبقاء والتمدد. تعتمد المنهجية على قراءة تاريخية تحليلية للمصادر الأولية لتفكيك الأهداف الاستراتيجية لأفعال الدولة المبكرة.

تكشف النتائج عن سياسة ذات شقين. تمثل المحور الأول في سياسة دفاعية براغماتية تجاه القوى الخارجية الكبرى، وتحديداً الخلافة العباسية. وقد تضمن ذلك الاستفادة من العزلة الجيوسياسية للمنطقة والشرعية الدينية للنسب الشريف لإدريس الأول لتأمين تحالفات أمازيغية محلية مع تجنب المواجهة المباشرة. أما المحور الثاني، فشمل توسعاً داخلياً منهجياً يهدف إلى توحيد القبائل للقضاء على التجزئة السياسية، وقاعدة قوة عسكرية، والسيطرة على نقاط اقتصادية استراتيجية، وأبرزها تلمسان، لتأمين السيطرة على طرق التجارة عبر الصحراء.

تستنتج الدراسة أن نجاح هذه السياسة المزدوجة يتجلى في نظرة الخلافة العباسية للأدارسة كتهديد كبير، والذي بلغ ذروته باغتيال إدريس الأول. إن قدرة الدولة على تجاوز هذه الأزمة وضمان استمراريتها تبرهن على متانة استراتيجيتها التأسيسية. هذه السياسة الخارجية المبكرة، التي وازنت ببراعة بين البراغماتية الجيوسياسية والتوحيد العسكري الداخلي، كانت العامل الحاسم في تأسيس أول كيان سيادي ومستقل في المنطقة.

الكلمات المفتاحية: الدولة الإدريسية، السياسة الخارجية، تشكيل الدولة، المغرب الأقصى، الخلافة العباسية، الجغرافيا السياسية، التحالفات القبلية.

Abstract:

This study analyzes the foreign policy of the nascent Idrisid state in the Maghreb al-Aqsa (789–804 AD), proposing that it was not a series of reactive actions, but rather a calculated, two-pronged strategy designed for both survival and expansion. The methodology relies on an analytical historical reading of primary sources to deconstruct the strategic objectives of the state's early actions.

The findings reveal a two-pronged policy. The first prong was a pragmatic defensive approach towards major external powers, specifically the Abbasid Caliphate. This involved exploiting the region's geopolitical isolation and the religious legitimacy of Idris I's noble lineage to secure local Berber alliances while avoiding direct confrontation. The second prong comprised a systematic internal expansion aimed at unifying the tribes to overcome political fragmentation, establishing a military power base, and controlling strategic economic points, most notably Tlemcen, to secure control over trans-Saharan trade routes.

العدد 6 شهر آب 2027

مجلة كلية الطف للعلوم الانسانية والاجتماعية

الجزء 2

ISSN (2959-0256)

The study concludes that the success of this dual policy is evident in the Abbasid Caliphate's perception of the Idrisids as a major threat, culminating in the assassination of Idris I. The state's ability to overcome this crisis and ensure its continuity demonstrates the robustness of its founding strategy. This early foreign policy, which skillfully balanced geopolitical pragmatism with internal military consolidation, was the decisive factor in establishing the first sovereign and independent entity in the region.

Keywords: Idrisid state, foreign policy, state formation, Maghreb al-Aqsa, Abbasid Caliphate, geopolitics, tribal alliances.

المقدمة:

يُمثّل قيام الدولة الإدريسية في المغرب الأقصى عام 789م لحظة تاريخية فارقة، لا بوصفها مجرد كيان سياسي جديد على خريطة الإسلام الغربي المتشظية، بل باعتبارها تجسيداً لنجاح استراتيجية بقاء معقدة انبثقت من رحم هزيمة سياسية وعسكرية في المشرق. إن فرار إدريس بن عبد الله، أحد الناجين القلائل من مذبحة "فخ" الدامية التي استهدفت العلويين عام 786م، لم يكن مجرد هجرة للبحث عن ملاذ آمن، بل كان بداية لمشروع سياسي استثمر ببراعة فائقة في الخصائص الجغرافية والبشرية والعقائدية للمغرب الأقصى، ليحوّل الهزيمة إلى تأسيس، والمنفى إلى نواة دولة (ابن الأثير، 1987، الصفحات 6/118-119) من هنا، يكتسب تحليل السياسة الخارجية لهذا الكيان الوليد أهميته القصوى؛ فهي لم تكن سياسة دولة مستقرة ذات حدود ثابتة ومؤسسات راسخة، وإنما كانت مجموعة من الأفعال وردود الأفعال المحسوبة بدقة، والتي هدفت في المقام الأول إلى ضمان (البقاء) في مواجهة أخطار وجودية، ثم الانتقال بحذر نحو مرحلة "التمدد" المدروس.

لقد قامت الاستراتيجية الإدريسية في طورها التأسيسي الأول، الممتد بين مبايعة إدريس الأول في وليلي وحتى السنوات الأولى من حكم ابنه إدريس الثاني (789-804م)، على فهم عميق لطبيعة القوى الفاعلة في المنطقة. فمن جهة الشرق، كان الخطر العباسي حاضراً بقوة، ليس فقط كقوة عسكرية ضاربة، بل كرمز للشرعية السُّنية المهيمنة التي ترى في قيام دولة علوية في أقصى حدودها طعنة في خاصرتها السياسية والعقائدية (الطبري، 1968، صفحة 20/8) (الكندي، 1908، صفحة 35). ولم يكن هذا الخطر مجرد تهديد نظري، بل تجسّد في الوجود المباشر لوكلاء العباسيين في إفريقية، أي الأغالبة، الذين شكلوا حاجزاً نارياً وحملوا على عاتقهم مهمة وأد المشروع الإدريسي في مهده، وهو ما تكشّف لاحقاً في حادثة اغتيال إدريس الأول نفسه بدسيسة من الخليفة هارون الرشيد (ابن عذاري المراكشي، 1983، الصفحات 1/86-88).

وعلى الصعيد الداخلي، وهو البعد الأكثر حساسية في سياسة الدولة الناشئة، لم يكن المغرب الأقصى أرضاً خالية تنتظر فاتحاً. بل كان فسيفساء قبلية شديدة التعقيد، تتوزع ولاءاتها بين ديانات وثنية قديمة، ومذاهب إسلامية مناوئة للخلافة المركزية كالخوارج الصفرية والإباضية، فضلاً عن إمارات مستقلة كإمارة بني مدرار في سجلماسة ودولة برغواطة في تامسنا (البكري، 1992، صفحة 76/2) (ابن خلدون، 2000، صفحة 225/6).

وبالتالي، استراتيجية إدريس الأول تعتمد على القوة لم تكن العسكرية المحضة، التي لم يكن يمتلكها في بداياته، بل على قوة "الشرعية الرمزية" المستمدة من نسبه الشريف. لقد نجح في توظيف هذا النسب كأداة سياسية فعالة لكسب ولاء أقوى قبائل المنطقة آنذاك، وهي قبيلة أوربة الأمازيغية، التي منحته "البيعة" ليس فقط كأمير حرب، بل كإمام وقائد روحي، مما أضفى على سلطته الوليدة بعداً دينياً عميقاً حمَاه من الرفض الأولي ومنحه قاعدة انطلاق صلبة (ابن أبي زرع الفاسي، 1972، الصفحات 22-23) (الناصري، 1997، صفحة 189/1).

الجزء 2

مجلة كلية الطف
للعلوم الانسانية والاجتماعية

ISSN (2959-0256)

العدد
6
شهر آب
2027

يتبلور جوهر الإشكالية البحثية في فهم الكيفية التي تمكنت بها هذه الدولة الفتية من المناورة بين هذه التحديات المتزامنة. كيف استطاعت أن تبني سياسة خارجية ذات وجهين: وجه دفاعي حذر تجاه المشرق العباسي والأندلس الأموية، ووجه هجومي توسعي تجاه القبائل والإمارات المناوئة في الداخل؟ إن الفترة الزمنية المحددة (789-804م) تعد حاسمة بشكل خاص، لأنها شهدت مرحلتين دقيقتين: مرحلة التأسيس الكاريزمي على يد إدريس الأول، ثم مرحلة الاختبار الأصعب بعد اغتيال المؤسس، حيث كان على الدولة أن تثبت قدرتها على البقاء كمؤسسة وليس كمشروع فردي. إن نجاة الدولة تحت وصاية الوزير (راشد) وولاء القبائل الأمازيغية لـ(إدريس الثاني) وهو لا يزال جنيناً ثم طفلاً، يمثل دليلاً قاطعاً على أن السياسة المتبعة لم تكن مجرد مغامرة عابرة، بل كانت قد أرست أسساً متينة من الولاءات والمصالح المشتركة (مجهول، 1961، صفحة 10).

تطرح هذه المقدمة إطاراً لتحليل السياسة الإدريسية المبكرة لا باعتبارها سلسلة من الغزوات والمعارك فحسب، بل كعملية تفاوض سياسي وعقائدي مستمر. إنها سياسة اعتمدت على تقديم نفسها كبديل شرعي للخلافة العباسية البعيدة والمستبدة، وكقوة موحِّدة قادرة على إنهاء حالة التشرذم القبلي التي عانى منها المغرب الأقصى. في هذا السياق، لم تكن الحملات العسكرية على تلمسان أو بلاد تامسنا مجرد رغبة في التوسع، بل كانت رسائل سياسية موجهة إلى الداخل والخارج على حد سواء؛ رسائل تؤكد قدرة الدولة الجديدة على فرض الأمن وتوحيد الكلمة تحت راية (آل البيت)، وهو ما شكّل حجر الزاوية في استراتيجيتها المزدوجة: البقاء عبر الشرعية، والتمدد عبر فرض الهيبة.

مشكلة البحث:

كيف نجحت الدولة الإدريسية في بدايتها في البقاء والتوسع رغم قلة الموارد وكثرة التحديات، سواء من الداخل (القبائل) أو من الخارج (الدول المجاورة مثل الدولة العباسية)؟

فرضيات البحث:

اعتمدت الدولة الإدريسية على التحالفات القبلية لتثبيت حكمها ساعد ضعف الدولة العباسية على استقلال الإدريسيين، ولعبت القيادة (إدريس الأول وإدريس الثاني) دورًا مهمًا في نجاح السياسة الخارجية كانت سياسة التمدد وسيلة لتأمين الدولة وزيادة نفوذها

الدراسات السابقة:

تتمحور الدراسات التي قاربت موضوع السياسة الخارجية للأدارسة واستراتيجيات بقائهم في اتجاهين رئيسين: الاتجاه التاريخي التوثيقي: وتمثله المصادر الكلاسيكية، وأبرزها كتاب "روض القرطاس" لابن أبي زرع الفاسي (ط. دار المنصور، 1972م)، وكتاب "البيان المغرب" لابن عذاري المراكشي (ط. دار الثقافة، 1983م)؛ حيث ركزت هذه المصادر على رصد حركة التوسع العسكري والمبايعات القبلية، ووفرت المادة الخام لفهم علاقة الدولة بالخارج، إلا أنها غلب عليها الطابع السردي دون تحليل الاستراتيجية الخارجية كمنظومة متكاملة.

الاتجاه التحليلي الاستراتيجي: وتتصدره دراسة سعدون عباس نصر الله "دولة الأدارسة في المغرب: عصر القوة" (ط. دار النهضة العربية، 1987م)، التي حللت موازين القوة في عهد التأسيس، ودراسة عبد الله العروي في "مجمل تاريخ المغرب" (ط. المركز الثقافي العربي، 1984م)، الذي ناقش تحول المغرب إلى كيان سياسي مستقل. ورغم أهمية هذه الدراسات، إلا أنها تناولت السياسة الخارجية ضمن السياق التاريخي العام للدولة

أهمية البحث:

يوضح كيف تأسست الدولة الإدريسية كأول دولة مستقلة في المغرب الأقصى يبين دور السياسة الخارجية في نجاح الدول الناشئة يساعد على فهم العلاقة بين القبائل والسلطة السياسية يقدم صورة مبسطة عن التاريخ الإسلامي في المغرب

منهج البحث

-المنهج التاريخي: دراسة الأحداث وتحليلها حسب الزمن

-المنهج الوصفي: وصف السياسة الخارجية واستراتيجياتها

الجزء 2

مجلة كلية الطف
للعلوم الانسانية والاجتماعية

ISSN (2959-0256)

العدد
6
شهر آب
2027

هيكلية البحث:

المقدمة
المبحث الأول: أسس السياسة الخارجية الإدريسية في عهد إدريس الأول
المطلب الأول: استراتيجيات التحالفات القبلية وتوحيد الجبهة الداخلية الاعتماد على القبائل
تقوية الوحدة الداخلية
المطلب الثاني: التعامل مع القوى الخارجية المجاورة الحذر من الدولة العباسية بناء علاقات أو تجنب الصراعات
المبحث الثاني: تطور السياسة الخارجية وتحدياتها في عهد إدريس الثاني
المطلب الأول: ترسيخ الاستقلال ومواجهة التحديات تثبيت الحكم مواجهة المشاكل الداخلية والخارجية
المطلب الثاني: سياسة التمدد وتثبيت النفوذ التوسع في المناطق تقوية السيطرة والنفوذ
الخاتمة
المصادر

المبحث الأول: أسس السياسة الخارجية الإدريسية في عهد إدريس الأول (789–793م)

المطلب الأول: استراتيجية التحالفات القبلية وتوحيد الجبهة الداخلية

لم يكن وصول إدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى عام 788م مجرد فرار سياسي ناجٍ من وقعة فخ الدامية، بل كان بمثابة قراءة عميقة لخريطة القوى المتصارعة في مغربٍ كان يموج بالانقسامات القبلية والمذاهب الدينية المتباينة. ففي تلك الفترة، كانت السلطة العباسية في بغداد اسميةً أكثر منها فعلية، بينما كانت القبائل البربرية الكبرى، مثل برغواطة في السهول الأطلسية والدولة الصفرية في سجلماسة، تشكل كيانات مستقلة تتحدى أي سلطة مركزية (ابن خلدون، 2000، صفحة 215/6) (مؤنس، 1987، صفحة 19). في هذا السياق، أدرك إدريس الأول بحنكته السياسية أن بقاء مشروعه وتمدده لا يمكن أن يعتمد على قوة عسكرية خارجية لم تكن بحوزته، ولا على شرعيته كشريف علوي فحسب، بل على قدرته على نسج شبكة من التحالفات المحلية تحول الفسيفساء القبلية المتناحرة إلى جبهة داخلية متماسكة. لقد كانت استراتيجيته الأولى، وبالتالي حجر الزاوية في سياسته الخارجية المستقبلية، هي تحويل التشرذم الداخلي إلى مصدر قوة، وهو ما بدأ بتحديد الحليف الاستراتيجي الأول: قبيلة أوربة.

تجاوزت العلاقة بين إدريس الأول وقبيلة أوربة البربرية، التي استقر في حماها بمدينة وليلي، مفهوم الحماية التقليدي لتتخذ شكلاً مؤسسياً عبر (البيعة). لم تكن هذه البيعة التي تمت في عام 789م مجرد عقد سياسي لمنحه اللجوء، بل كانت عملاً تأسيسياً لدولة ناشئة، نقلت إدريس من مكانة اللاجئ المحمي إلى مرتبة الإمام والقائد الشرعي (ابن أبي زرع الفاسي، 1972، صفحة 2)، إن قبول إسحاق بن محمد، زعيم أوربة، وغيره من زعماء القبائل المجاورة، مبايعته على "إقامة أمر الله، والجهاد في سبيل الله، وإحياء السنة" قد أضفى على سلطته بعداً دينياً وسياسياً لم يكن ليحصل عليه أي زعيم محلي. هذه البيعة حولت القبيلة من مجرد حليف إلى قاعدة صلبة للدولة، وجعلت من جيشها نواة الجيش الإدريسي الأول. وبذلك، فإن أولى خطوات السياسة "الخارجية" لإدريس الأول كانت موجهة نحو الداخل، فكل قبيلة تنضم إلى بيعته كانت تعني خصماً محتملاً أقل في جواره، وحليفاً إضافياً في مواجهة الأخطار البعيدة المتمثلة في الخلافة العباسية أو الإمارات المنافسة (ابن عذاري المراكشي، 1983، الصفحات 85-86).

يشكل المصاهرة السياسية أحد أبرز الأعمدة التي ارتكزت عليها استراتيجية إدريس الأول لدمج مشروعه في النسيج الاجتماعي المغربي وتثبيت دعائم تحالفاته. فزواجه من "كنزة" ابنة زعيم قبيلة أوربة لم يكن حدثاً شخصياً، بل كان عملاً سياسياً استراتيجياً بامتياز، رسخ التحالف مع أقوى قبائل المنطقة وحوله من ميثاق سياسي إلى رابطة دم دائمة (الناصري، 1997، صفحة 21/1)، هذا الزواج ضمن له ولاءً لا يتزعزع من قبل قبيلة أوربة، كما منح الشرعية لنسله القادم الذي سيجمع بين شرف النسب النبوي من جهة الأب، والعمق الاجتماعي والانتماء البربري من جهة الأم. لقد كانت هذه

الجزء 2
مجلة كلية الطف
للعلوم الانسانية والاجتماعية
ISSN (2959-0256)
العدد
6
شهر آب
2027

الخطوة بمثابة إعلان واضح بأن الدولة الإدريسية ليست دولة "علوية" دخيلة، بل هي دولة مغربية أصيلة في تركيبتها البشرية والاجتماعية، وهو ما سهّل انضمام قبائل أخرى لم تكن لتقبل بسهولة بسلطة عربية خالصة. وبهذا، لم تعد الجبهة الداخلية مجرد تكتل قبائل، بل أصبحت مشروعاً اندماجياً يمتلك مقومات البقاء والاستمرارية (التازي، 1987، صفحة 112/1) (ابن خلدون، 2000، صفحة 21/6).

بعد تأمين قاعدة سلطته في وليلي عبر التحالف والمصاهرة والبيعة، انتقل إدريس الأول إلى مرحلة أكثر ديناميكية، استخدم فيها القوة العسكرية ليس للتوسع فحسب، بل كأداة لتوحيد الجبهة الداخلية وصهرها في بوتقة واحدة. لقد كانت حملاته العسكرية الموجهة نحو تلمسان شرقاً، وتامسنا غرباً، بمثابة سياسة خارجية تطبيقية تهدف إلى تحقيق أهداف داخلية بالدرجة الأولى (البكري، 1992، صفحة 87/2). فمن خلال قيادة جيوش مكونة من قبائل أوربة، زناتة، ومكناسة وغيرها ضد أعداء مشتركين، سواء كانوا من الخوارج الصفرية أو من قبائل برغواطة أو حتى من الموالين للعباسيين في تلمسان، خلق إدريس هوية قتالية مشتركة، وحول التنافسات القبلية القديمة إلى تضامن في الميدان تحت راية واحدة. فكل انتصار كان يعزز من سلطته كقائد عسكري مظفر، ويؤكد شرعيته كإمام مجاهد، ويجلب الغنائم التي تزيد من ولاء القبائل له. وبهذا، كانت حروبه الخارجية وسيلة فعالة لضبط الداخل ومنع أي تمرد محتمل، حيث أصبحت القبائل منشغلة بالجهاد والتوسع تحت قيادته بدلاً من الاقتتال فيما بينها (ابن عذاري المراكشي، 1983، الصفحات 1/90-93) (العروي، 1997، صفحة 15).

لم تكن استراتيجية التحالفات الإدريسية مجرد حسابات سياسية وعسكرية براغماتية، بل ارتكزت بقوة على الشرعية الدينية والأيديولوجية التي جسدها إدريس الأول. فكونه من آل البيت منح مشروعه هالة من القداسة والاحترام في بيئة إسلامية كانت تتطلع إلى قيادة شرعية بديلة عن سلطة العباسيين البعيدة، والتي كان ينظر إليها في المغرب كقوة غاشمة في سياق وقعة فخ التي كانت سبباً في مجيئه (الطبري، 1968، صفحة 192/8). لقد قدم إدريس نفسه ليس كملك أو أمير يسعى للسلطة، بل كإمام يسعى لإقامة العدل ونشر الإسلام الصحيح وتطهير المغرب من (البدع)، في إشارة واضحة إلى برغواطة والخوارج. هذا الخطاب الديني كان له صدى واسع لدى قبائل البربر التي، ورغم تمسكها باستقلاليتها، كانت متشبعة بالدين الإسلامي وتبحث عن قيادة روحية توحدها. لقد نجح إدريس في توظيف نسبه الشريف كأقوى أداة دبلوماسية لجمع القبائل حوله، مما جعل التحالف معه ليس مجرد مصلحة سياسية، بل واجباً دينياً لدى الكثيرين، وهو ما منح جبهته الداخلية تماسكاً أيديولوجياً قوياً عجزت القوى الأخرى عن تحقيقه.

المطلب الثاني: التعامل مع القوى الخارجية المجاورة

تجسدت العبقرية السياسية لإدريس بن عبد الله في قدرته على قراءة الخارطة الجيوسياسية المعقدة للمغرب الأقصى، وتحديد طبيعة التهديدات والفرص التي تمثلها كل قوة من القوى المحيطة بدولته الوليدة. لم تكن سياسته الخارجية مجرد ردود أفعال عسكرية، بل كانت منظومة متكاملة من الإجراءات المدروسة التي وازنت بين الحذر الشديد والتوسع المحسوب، مستهدفةً تثبيت أركان الدولة وضمان بقائها في محيط معادٍ ومتقلب. انطلقت هذه السياسة من فهم عميق بأن الخطر الأكبر، وإن كان بعيداً جغرافياً، هو الخلافة العباسية، بينما شكلت القوى المحلية تحديات مباشرة تتطلب مواجهات حاسمة لترسيخ الهيمنة وتأمين الموارد.

كانت علاقة الدولة الإدريسية بالخلافة العباسية في المشرق، ممثلة بواليها في إفريقية، هي حجر الزاوية الذي حدد استراتيجية البقاء الإدريسية بأكملها. فالشرعية التي قامت عليها الدولة الإدريسية كانت في جوهرها معارضة للشرعية العباسية، مما جعل المواجهة بينهما حتمية من الناحية الأيديولوجية (ابن خلدون، 2000، صفحة 2/4). أدرك إدريس الأول أن أي مواجهة عسكرية مباشرة مع جيوش الخلافة النظامية ستكون بمثابة انتحار سياسي وعسكري لدولته التي لم تكتمل بعد أركانها. من هنا، اعتمد سياسة "الاحتواء عن بعد"، التي تمثلت في تجنب أي عمل استفزازي مباشر تجاه الشرق،

مجلة كلية الطف
للعلوم الانسانية والاجتماعية

ISSN (2959-0256)

العدد
6
شهر آب
2027

والتركيز بدلاً من ذلك على بناء قاعدة سلطة صلبة في المغرب الأقصى تجعل أي محاولة عباسية لغزو المنطقة مكلفة وعسيرة. لقد كان اختياره لمدينة وليلي، المحصنة بين جبال زرهون وبعمق الأراضي البربرية، اختياراً استراتيجياً يهدف إلى صعوبة الوصول إليه من قبل القوات القادمة من القيروان (الناصري، 1997، صفحة 21/1). لقد راهن إدريس على أن والي إفريقية، المنشغل بقمع الثورات المحلية وتأمين سلطته، لن يغامر بإرسال حملة كبيرة إلى أقصى المغرب لمواجهة قوة تحظى بدعم قبلي واسع في تضاريس جغرافية وعرة، وهو ما أثبتت الأيام صحته خلال فترة حكمه القصيرة (ابن عذاري المراكشي، 1983، صفحة 8/1).

على صعيد آخر، شكلت إمارة برغواطة، التي سيطرت على سهول تامسنا الأطلسية، تحدياً من نوع مختلف. لم يكن الخطر هنا سياسياً فحسب، بل كان في جوهره أيديولوجياً وديمغرافياً. فبرغواطة لم تكن مجرد تجمع قبلي متمرد، بل كانت كياناً سياسياً له ديانته الخاصة التي مزجت بين المعتقدات الإسلامية والوثنية المحلية، وقدمت نفسها كبديل ديني لسكان المنطقة (البكري، 1992، صفحة 87/2). أدرك إدريس الأول ببعد نظره أن وجود هذا الكيان على تخوم دولته يمثل تهديداً مزدوجاً؛ فهو يحد من قدرته على التوسع نحو السواحل الأطلسية الغنية، ويشكل في الوقت ذاته خطراً على شرعيته الدينية كأمير للمؤمنين وسليل للبيت النبوي. لذلك، كانت مواجهة برغواطة ضرورة حتمية لترسيخ السلطتين الروحية والزمنية للدولة الإدريسية. يمكن تفسير حملته على تلمسان أولاً، قبل التوجه غرباً، بأنها كانت تهدف إلى تأمين ظهره وتوسيع قاعدة موارده البشرية والمادية قبل الدخول في مواجهة كبرى مع قوة راسخة مثل برغواطة (ابن أبي زرع الفاسي، 1972، صفحة 2). وعندما توجه لقتالهم، لم تكن حربه مجرد حملة توسعية، بل أخذت طابع الجهاد الديني لتطهير المغرب من (البدعة)، وهو ما أكسبه تأييداً واسعاً من القبائل التي كانت لا تزال على الإسلام الصحيح، وساهم في شرعنة حكمه كحامٍ للدين (العروي، 1997، صفحة 145/1) (مؤنس، 1987، صفحة 25).

ويندرج في سياق هذه السياسة التوسعية المدروسة، الصدام مع القبائل الزناتية والمغراوية في وسط المغرب، والتي كانت تدين بالولاء إما اسمياً للعباسيين أو للأمويين في الأندلس. كانت سيطرة هذه القبائل على مدن استراتيجية مثل تلمسان وسجلماسة تشكل عائقاً أمام طموحات إدريس الأول في بناء دولة قوية ومستقلة اقتصادياً. لم تكن السيطرة على تلمسان عام 789م مجرد انتصار عسكري، بل كانت خطوة استراتيجية بالغة الأهمية، فهي بوابة المغرب الأوسط ونقطة اتصال حيوية على طريق التجارة نحو إفريقية (ابن خلدون، 2000، صفحة 221/6) (ابن الأثير، 1987، صفحة 10/6). لقد أدت هذه السيطرة إلى قطع خطوط الإمداد والتواصل المحتملة بين أعدائه في إفريقية والقبائل الموالية لهم في المغرب، كما وفرت له قاعدة أمامية لشن حملات مستقبلية. لقد كانت هذه الحملة بمثابة إعلان صريح عن ميلاد قوة إقليمية جديدة لم تعد تقبل بالحدود التي فرضتها القوى التقليدية، وأظهرت أن الدولة الإدريسية الناشئة قادرة على تحويل التحالفات القبلية إلى قوة عسكرية ضاربة قادرة على السيطرة على المراكز الحضرية.

أما العلاقة مع الإمارة الأموية في الأندلس، فقد اتسمت بالترقب والحذر المتبادل. كان كلا الكيانين، الإدريسي والأموي، خارجاً على سلطة الخلافة العباسية، وهو ما كان يمكن أن يشكل أساساً لتحالف تكتيكي بينهما. إلا أن التنافس الأيديولوجي بين العلويين والأمويين، بالإضافة إلى التنافس الجيوسياسي على النفوذ في المغرب الأقصى، حال دون قيام مثل هذا التحالف (شلبي، 1978، صفحة 41/4). نظر أمويو قرطبة بعين القلق إلى تأسيس دولة علوية قوية على الضفة الجنوبية لمضيق جبل طارق، لما قد يمثله ذلك من تهديد مستقبلي، أو إمكانية استخدامه كورقة من قبل العباسيين لزعزعة استقرار الأندلس. من جانبه، كان إدريس الأول يدرك تماماً أن فتح جبهة مع الأندلس سيمثل عبئاً استراتيجياً لا طاقة لدولته به، خاصة مع وجود الخطر العباسي في الشرق وبرغواطة في الغرب. لذلك، اتبع سياسة عدم التدخل والحياد الحذر، مركزاً جهوده العسكرية والدبلوماسية على الجبهتين

الجزء 2
ISSN (2959-0256)
مجلة كلية الطف
للعلوم الانسانية والاجتماعية
العدد
6
شهر آب
2027

الداخلية والشرقية، وتأجيل أي مواجهة محتملة مع القوة الأموية إلى أن تترسخ أركان دولته بشكل كامل (عنان، 1997، صفحة 24/1). هذه البراغماتية السياسية هي التي سمحت له بتكريس موارده المحدودة لمواجهة الأخطار الأكثر إلحاحاً، وتجنب الدخول في صراع متعدد الجبهات كان من شأنه أن يقضي على دولته في مهدها.

المبحث الثاني: تطور السياسة الخارجية وتحدياتها في عهد إدريس الثاني (793–804م)

المطلب الأول: ترسيخ الاستقلال ومواجهة التحديات الداخلية والخارجية

لم يكن ميلاد الدولة الإدريسية حدثًا معزولاً في تاريخ المغرب الأقصى، بل كان تتويجًا لتحولات عميقة الجذور، ونقطة انطلاق لمرحلة سياسية جديدة معقدة. فبعد النجاح الأولي الذي حققه إدريس الأول في تجميع القبائل البربرية تحت لواء النسب الشريف، جاء اغتياله غدرًا بأمر من الخليفة العباسي هارون الرشيد ليضع الكيان الوليد أمام أخطر اختبار لوجوده (ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1980، صفحة 8/1) إن مرحلة الوصاية على العرش، التي تولاها العبد المخلص راشد، مولى إدريس الأول، لم تكن مجرد فترة انتقالية، بل كانت بمثابة ورشة عمل سياسية وعسكرية دقيقة، تم فيها نحت أسس البقاء والاستمرارية في مواجهة أخطار وجودية من الداخل والخارج على حد سواء.

لقد تجسدت العبقرية السياسية لراشد في قدرته الفائقة على تحويل لحظة الضعف والانهيار المحتمل إلى فرصة لإعادة بناء الشرعية على أسس أكثر رسوخًا. فبدلاً من أن ينهار البناء السياسي بموت مؤسسه، عمل راشد على نقل الولاء من شخص إدريس الأول إلى (فكرة) الدولة العلوية ورمزيتها المتمثلة في الجنين الذي لم يولد بعد (ابن أبي زرع الفاسي، 1972، صفحة 2). كانت عملية أخذ البيعة لإدريس الثاني وهو في بطن أمه خطوة سياسية غير مسبوقة، تهدف إلى قطع الطريق على أي طموحات قبلية أو محاولات عباسية لزرع الفتنة، وتؤكد على أن المشروع الإدريسي لم يكن مشروع رجل واحد، بل مشروع سلالة وشرعية دينية عميقة ارتبطت بها مصالح القبائل الكبرى، وعلى رأسها قبيلة أوربة التي شكلت الحاضنة الأولى للدولة (مؤنس، 1987، صفحة 215/1) (التازي، 1987، صفحة 5/3). وبهذا الإجراء، ضمن راشد استمرارية رمزية للسلطة، مما أعطاه الوقت الكافي لإعادة ترتيب البيت الداخلي وتثبيت دعائم الحكم.

على الصعيد الخارجي، كانت استراتيجية البقاء التي انتهجها راشد، ومن بعده إدريس الثاني في سنوات حكمه الأولى، تقوم على مبدأ "الحياد الحذر" و"الدفاع الاستباقي". كان التحدي الأكبر متمثلاً في الخلافة العباسية، التي لم تكتفِ باغتيال المؤسس، بل ظلت ترى في الدولة الإدريسية خنجرًا علويًا في خاصرتها الغربية. لم تكن المواجهة العسكرية المباشرة خيارًا مطروحًا بالنسبة للعباسيين بسبب البعد الجغرافي الهائل وصعوبة تضاريس المغرب، لذا تركزت سياستهم على محاولات الاختراق الداخلي وإثارة القلاقل عبر ولاتهم في إفريقية، خاصة بعد تأسيس دولة الأغالبة (ابن خلدون، 2000، صفحة 19/4). أدرك راشد أن أمن الدولة يكمن في تحصين جبهتها الداخلية أولاً، فعمل على توطيد العلاقات مع القبائل التي لم تدخل في حلف إدريس الأول، واستخدم مزيجًا من الدبلوماسية وإظهار القوة لضمان ولائها أو على الأقل تحييدها، مدركًا أن أي اضطراب داخلي سيشكل ثغرة يستغلها العباسيون فورًا.

وفي سياق هذه السياسة الدفاعية، برزت العلاقة مع القوى الإقليمية المجاورة كعامل حاسم في معادلة البقاء. ففي الشرق، شكلت دولة الأغالبة السنية، الموالية اسميًا للعباسيين، حاجزًا وفاصلًا طبيعيًا، لكنها في الوقت ذاته كانت مصدر تهديد محتمل. كانت سياسة إبراهيم بن الأغلب، مؤسس الدولة الأغلبية، تتسم بالبراغماتية الشديدة؛ فقد كان تركيزه منصبًا على تثبيت حكمه في إفريقية ومواجهة التمردات المحلية، ولم يكن في وارد فتح جبهة جديدة ومكلفة في المغرب الأقصى إلا بتحريض مباشر وقوي من بغداد (الطبري، 1968، صفحة 28/8). لقد استغل راشد هذا الوضع بذكاء، فعمل على تجنب أي استفزاز مباشر للأغالبة، مركزًا جهوده على بناء قوة ذاتية

مجلة كلية الطف
للعلوم الانسانية والاجتماعية

ISSN (2959-0256)

العدد
6
شهر آب
2027

قادرة على ردع أي عدوان محتمل، وهو ما يمكن وصفه باستراتيجية "توازن الضعف"، حيث كان كل طرف يدرك تكلفة المواجهة المباشرة.

أما في الشمال، فكانت الإمارة الأموية في الأندلس تمثل قوة لا يمكن إغفالها. وعلى الرغم من العداء العقائدي التاريخي بين الأمويين والعلويين، فإن العداء المشترك للخلافة العباسية خلق نوعًا من التوازن الجيوسياسي الذي استفاد منه الإدريسيون. لم تكن الإمارة الأموية لترضى بتمدد النفوذ العباسي إلى جوارها المباشر في المغرب، وهو ما جعل وجود الدولة الإدريسية المستقلة أمرًا مقبولاً ضمنيًا، بل وربما مفيدًا، كمنطقة عازلة (ابن الأثير، 1987، صفحة 144/6) (إيفاريست، 1994، صفحة 16/1). لم تصل الأمور إلى حد التحالف الرسمي، لكن غياب العداء الفعلي من قبل قرطبة أتاح للدولة الإدريسية الناشئة أن تركز طاقتها على تحدياتها الداخلية والشرقية، بدلاً من القلق من جبهة شمالية.

داخليًا، لم تكن كل القبائل البربرية على وفاق تام مع المشروع الإدريسي. فقد كانت هناك تكتلات قبلية قوية ومستقلة، مثل برغواطة في السهول الأطلسية، وبنو مدرار في سجلماسة، والتي كانت تمثل تحديًا لسيادة الدولة المركزية. لقد كانت سياسة إدريس الثاني الأولية تجاه هذه الكيانات سياسة احتواء وتأجيل للمواجهة. فالدخول في حروب أهلية واسعة في تلك المرحلة المبكرة كان سيؤدي حتمًا إلى استنزاف الدولة وفتحها أمام التدخلات الخارجية. لذا، تم التركيز على تقوية العاصمة الجديدة "فاس" التي بدأ إدريس الثاني في بنائها لتكون قاعدة حكمه، وتأمين الطرق التجارية، وبناء جيش قوي يعتمد في نواته على العرب الوافدين والبربر المخلصين، تمهيدًا لمرحلة التوسع التي ستأتي لاحقًا بعد ضمان استقرار الدولة وبقائها (البكري، 1992، صفحة 881/2) (ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1980، صفحة 9/1). إن هذه المرحلة، التي امتدت من وفاة إدريس الأول حتى تمكن إدريس الثاني من بسط سيطرته الفعلية، كانت بحق معركة وجودية، انتصرت فيها حكمة القيادة وقدرتها على قراءة الواقع الإقليمي المعقد، وتوظيفه لصالح ترسيخ استقلال كيان سياسي كان من الممكن أن يختفي من التاريخ قبل أن يبدأ فعليًا.

المطلب الثاني: سياسة التمدد وتثبيت النفوذ

مثّل انتقال السلطة الفعلي إلى إدريس الثاني بعد بلوغه سن الرشد منعطفًا حاسمًا في طبيعة السياسة الخارجية للدولة الإدريسية، حيث تحولت من استراتيجية البقاء الحذر التي طبعت عهد الوصاية إلى سياسة هجومية منظمة تستهدف التمدد وتثبيت النفوذ بشكل لا رجعة فيه. لم يعد الهدف مجرد الدفاع عن النواة الأولى للدولة في وليلي وزرهون، بل تحول إلى مشروع سياسي طموح يسعى إلى بسط السيطرة على المغرب الأقصى بأكمله، وإخضاع القبائل الكبرى المترددة، ومواجهة القوى الإقليمية المنافسة بشكل مباشر (العروي، 1997، صفحة 15). يتضح هذا التحول الاستراتيجي في سلسلة من الحملات العسكرية والقرارات السياسية التي لم تكن عشوائية، بل كانت ترتكز على رؤية جيوسياسية واضحة تهدف إلى تأمين الدولة من خلال توسيع مجالها الحيوي والسيطرة على الموارد والممرات الاستراتيجية.

كانت أولى وأبرز تجليات هذه السياسة التوسعية هي التوجه شرقًا نحو تلمسان، التي كانت تشكل خاصرة رخوة للدولة الإدريسية ومركز نفوذ متقدم للدولة الأغلبية، وكيلة الخلافة العباسية في إفريقية. لم تكن هذه الحملة مجرد عملية غزو عسكري، بل كانت تحمل أبعادًا سياسية وإيديولوجية عميقة؛ فهي بمثابة إعلان صريح عن رفض الهيمنة العباسية ووكيلها الأغلبي، وتأكيد على استقلالية المشروع الإدريسي الشيعي الزيدي في المغرب الأقصى. تذكر الروايات التاريخية أن إدريس الثاني سار بجيش كثيف تمكن من خلاله من إخضاع المدينة وفرض سلطانه عليها، مما أجبر عاملها الأغلبي على الفرار (ابن خلدون، 2000، صفحة 22/6). إن السيطرة على تلمسان لم تكن مكسبًا عسكريًا فحسب، بل كانت ضربة استراتيجية للأغالبة، حيث أدت إلى تأمين الحدود الشرقية للدولة الإدريسية، ووضعت تحت سيطرتها إحدى أهم المدن التجارية على الطريق الرابط بين المغرب وإفريقية، مما وفر للدولة الناشئة موارد اقتصادية جديدة عززت من قدرتها

الجزء 2
ISSN (2959-0256)
مجلة كلية الطف
للعلوم الانسانية والاجتماعية
العدد
6
شهر آب
2027

على تمويل جيشها ومشروعاتها اللاحقة (ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1983، صفحة 9).

وبالتوازي مع تأمين الجبهة الشرقية، انطلقت سياسة التمدد الإدريسية لترسيخ السلطة في الداخل، مستهدفةً الكيانات القبلية الكبرى التي كانت لا تزال خارج دائرة النفوذ المباشر. لم تكن هذه القبائل، مثل مصمودة وزناتة وغمارة، مجرد تجمعات بشرية، بل كانت تمثل قوى سياسية وعسكرية لها وزنها، وكان بقاؤها مستقلة يشكل تهديدًا دائمًا لوحدة الدولة وتماسكها (مؤنس، 1987، صفحة 28/1). لقد أدرك إدريس الثاني بحسه السياسي أن بناء دولة مركزية قوية يستلزم بالضرورة كسر شوكة هذه الكيانات وإدخالها قسرًا أو طوعًا تحت سلطته. ومن هنا، انطلقت حملات عسكرية متتابعة استهدفت مناطق الأطلس الكبير والصغير وسهول تادلة، وهي مناطق ذات أهمية اقتصادية بالغة لخصوبة أراضيها ووفرة مراعيها. لم تكن هذه الحملات مجرد حروب إبادة، بل كانت تجمع بين القوة العسكرية والدهاء السياسي، حيث كان يتم إخضاع القبيلة عسكريًا ثم يُعيّن عليها قائد موالٍ للإدريسيين أو يتم أخذ رهائن من أبناء زعمائها لضمان ولائها المستقبلي (البكري، 1992، صفحة 845/2) (العربي، 1983، صفحة 7).

إن العمق الاستراتيجي الحقيقي لسياسة التمدد وتثبيت النفوذ في عهد إدريس الثاني يتجلى في قراره التاريخي بتأسيس مدينة فاس عام 808م، والذي بدأ التخطيط والإعداد له في أواخر الفترة المحددة هنا. لم يكن هذا القرار مجرد رغبة في بناء عاصمة جديدة، بل كان عملاً سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا من الطراز الرفيع. فمدينة وليلي، العاصمة الأولى، كانت مدينة رومانية قديمة ذات رمزية تاريخية لا تتناسب مع مشروع الدولة الإسلامية الجديدة، كما أن موقعها لم يعد استراتيجيًا بعد توسع رقعة الدولة (ابن أبي زرع الفاسي، 1972، صفحة 3). جاء اختيار موقع فاس ليعكس عبقرية التخطيط الجيوسياسي؛ فالمدينة تقع في قلب سهل سايس الخصيب، مما يضمن لها الاكتفاء الذاتي من الموارد الزراعية، كما أنها تتحكم في ملتقى الطرق التجارية الرئيسية القادمة من الشمال والجنوب والشرق والغرب. لقد صُممت المدينة لتكون قاعدة عسكرية متقدمة، ومركزًا إداريًا مركزيًا، وقطبًا اقتصاديًا جاذبًا. إن بناء عدوتين متقابلتين على ضفتي النهر، "عدوة القرويين" و"عدوة الأندلسيين"، كان يهدف إلى استيعاب وتنظيم التوازنات القبلية والعرقية المختلفة الوافدة على الدولة، من عرب وأفارقة وأمازيغ وأندلسيين، وتحويل هذا التنوع من مصدر محتمل للصراع إلى رافد من روافد قوة الدولة (Le Tourneau, 1949, p. 41) (مجلة هسبريس، 2005، صفحة 11).

هكذا، تحولت سياسة إدريس الثاني من مجرد رد فعل على التهديدات إلى فعل استباقي يهدف إلى إعادة تشكيل الخريطة السياسية للمغرب الأقصى. فالحملات العسكرية لم تكن غاية في حد ذاتها، بل كانت أداة لفرض واقع سياسي جديد، وتأسيس فاس لم يكن مشروعًا عمرانيًا فحسب، بل كان تتويجًا لهذه السياسة وتجسيدًا ماديًا لمشروع الدولة المركزية القوية. وبهذه الاستراتيجية المزدوجة، التي جمعت بين التوسع العسكري في الأطراف والبناء المؤسسي في المركز، نجح إدريس الثاني في فترة وجيزة في تحويل الدولة الإدريسية من مجرد إمارة صغيرة محصورة في محيطها إلى قوة إقليمية مهابة الجانب، قادرة على فرض إرادتها على مجال جغرافي واسع، وتثبيت نفوذها بشكل جعل من الصعب على منافسيها استئصاله لعقود طويلة قادمة (ابن خلدون، 2000، صفحة 222/6) (العروي، 1997، صفحة 15/1).

بنية الشرعية المضادة: النشأة الإدريسية كفعل سياسي خارجي

شكّل فرار إدريس بن عبد الله من موقعة فخّ سنة 786م، ونجاته من المذبحة التي أقامها العباسيون للطالبيين، الحدث التأسيسي الذي رسم ملامح السياسة الخارجية لدولته المستقبلية. لم تكن الدولة الإدريسية وليدة تطور اجتماعي داخلي في المغرب الأقصى بقدر ما كانت نتاجًا مباشرًا لصراع سياسي وعقائدي في قلب المشرق الإسلامي. وعليه،

مجلة كلية الطف
للعلوم الانسانية والاجتماعية

ISSN (2959-0256)

العدد
6
شهر آب
2027

فإن سياستها الخارجية الأولى لم تكن خيارًا استراتيجيًا، بل ضرورة وجودية فرضتها طبيعة نشأتها؛ فهي دولة قامت على "شرعية مضادة" للخلافة العباسية، مما جعل التهديد الخارجي، المتمثل في بغداد، هو المحدد الأول والأخطر لوجودها (الطبري، 1968، صفحة 21/8). لقد حمل إدريس الأول معه إلى المغرب ليس فقط نسبه الشريف، بل مشروعًا سياسيًا معارضًا، وهو ما أدركه الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي وصف المغرب بأنه (شجى معترض في حلقه) (ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1980، صفحة 8/1). هذا الإدراك العباسي المبكر لطبيعة الخطر الإدريسي حوّل المغرب الأقصى، الذي كان منطقة طرفية ومنسية، إلى مسرح مواجهة استراتيجية. وبالتالي، كانت أولى مهام السياسة الخارجية الإدريسية هي بناء كيان قادر على الصمود في وجه ردة الفعل العباسية الحتمية، وهذا ما يفسر الطابع الاستعجالي لعمليات بناء الدولة وتوحيد القبائل التي قام بها إدريس الأول فور مبايعته.

دبلوماسية التحالفات القبلية: بناء العمق الاستراتيجي الداخلي

حين بايعَت قبيلة أوربة البربرية إدريس الأول في مدينة وليلي سنة 789م، لم يكن الأمر مجرد اختيار لزعيم سياسي، بل تأسيس لأول وأبرز معاهدة في تاريخ العلاقات الخارجية للدولة الإدريسية. فقد نتج عن تلك البيعة تحالف استراتيجي جمع بين الشرعية الدينية والنسب الهاشمي الذي مثّله إدريس، وبين القوة البشرية والسيطرة الميدانية التي امتلكتها القبائل البربرية، في وقت كانت فيه هذه القبائل بحاجة إلى رابط سياسي يوحد صفوفها لمواجهة التحديات الخارجية، سواء خطر الخوارج الصفرية في سجلماسة أو تهديد النفوذ العباسي القادم من الشرق (ابن خلدون، 2000، صفحة 225/6) (ابن أبي زرع الفاسي، 1972، صفحة 1). هذه الدبلوماسية القبلية الذكية حوّلت إدريس من لاجئ سياسي إلى أمير معترف به، ومنحت دولته الناشئة عمقًا استراتيجيًا داخليًا لا يمكن لأي قوة خارجية اختراقه بسهولة. فمن خلال هذه التحالفات التي توسعت لتشمل قبائل أخرى مثل زناتة وصنهاجة، ضمنت الدولة الإدريسية الولاء المحلي، والموارد البشرية للجيش، والأمن في الداخل، مما سمح لها بتوجيه طاقاتها نحو التحديات الخارجية. لقد كانت هذه السياسة بمثابة درع واقٍ، حيث أدرك إدريس أن أي مواجهة مع العباسيين أو وكلائهم الأغالبة في إفريقية ستكون خاسرة دون قاعدة شعبية صلبة وموحدة في المغرب الأقصى (التازي، 1987، صفحة 11).

تأمين المجال الحيوي الشرقي: المواجهة الاستباقية في تلمسان

فرض الواقع الجغرافي والسياسي على الدولة الإدريسية الناشئة أن تكون أولى خطواتها التوسعية موجهة نحو الشرق، ليس بهدف الغزو بقدر ما هو إجراء وقائي لتأمين حدودها الأكثر خطورة. كانت مدينة تلمسان، الخاضعة لقبيلة مغراوة الزناتية والموالية اسميًا للعباسيين، تشكل رأس جسر محتمل لأي هجوم عباسي قادم من إفريقية عبر ولاتهم الأغالبة (اليعقوبي، 1892، صفحة 34). تحرك إدريس الأول نحو تلمسان سنة 790م لم يكن مجرد حملة عسكرية، بل كان عملية سياسية خارجية معقدة. لقد نجح في إقناع أميرها محمد بن خزر بالدخول في طاعته دون قتال يُذكر، محولًا بذلك خصمًا محتملًا إلى حليف، ومنطقة تهديد إلى منطقة عازلة تحمي قلب الدولة الإدريسية في وليلي (ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1980، صفحة 88/1) (العربي، 1983، صفحة 7). هذا التحرك الاستباقي حرم العباسيين من قاعدة انطلاق لوجستية حيوية، وأظهر للقبائل البربرية في المغرب الأوسط قوة الدولة الجديدة وقدرتها على بسط نفوذها، مما شجع المزيد منها على الانضمام إلى المشروع الإدريسي. لقد كانت السيطرة على تلمسان بمثابة إعلان واضح من إدريس الأول أن سياسته الخارجية لن تكتفي بالدفاع، بل ستنتقل إلى الهجوم الاستباقي لتحييد الأخطار قبل وقوعها.

التمدد جنوبًا وغربًا: استراتيجية تعميق الموارد والبقاء

تجاوزت الرؤية السياسية لإدريس الأول مجرد تأمين الحدود الشرقية، وانطلقت في مرحلة لاحقة نحو بناء دولة

الجزء 2
مجلة كلية الطف
للعلوم الانسانية والاجتماعية
ISSN (2959-0256)
العدد
6
شهر آب
2027

قوية ومستقرة عبر السيطرة على الموارد الاقتصادية والبشرية للمغرب الأقصى. شكلت الحملات العسكرية على بلاد تامسنا وتادلا، ثم التوجه نحو بلاد السوس الأقصى، جزءًا لا يتجزأ من استراتيجية البقاء والتمدد. لم تكن هذه الحملات مجرد فتوحات عسكرية، بل كانت تهدف إلى تحقيق أهداف متعددة ضمن سياسة خارجية بعيدة المدى. أولاً، توحيد القبائل البربرية المشتتة تحت سلطة مركزية واحدة، والقضاء على الإمارات والمعاقل الخارجية (مثل البرغواطية) التي كان يمكن للعباسيين استغلالها لإثارة القلاقل الداخلية (البكري، 1992، صفحة 84/2). ثانيًا، السيطرة على الطرق التجارية الحيوية، خاصة تلك التي تربط المغرب الأقصى بإفريقيا جنوب الصحراء عبر سجلماسة، مما يوفر للدولة الناشئة الموارد المالية اللازمة لبناء جيش قوي وإدارة شؤون الدولة، ويقلل من اعتمادها على قبيلة أوربة وحدها (مجلة هسبريس، طرق التجارة الصحراوية وتأثيرها على قيام الدول في المغرب الأقصى ، 1985، الصفحات 55-57). لقد أدرك إدريس أن القوة العسكرية وحدها لا تكفي للبقاء؛ فالدولة القوية هي التي تمتلك اقتصادًا قويًا وعمقًا جغرافيًا وبشريًا يصعّب على أعدائها مهمة القضاء عليها.

الاغتيال كأداة للسياسة الخارجية العباسية ورد الفعل الإدريسي

عندما استنفدت الخيارات العسكرية المباشرة فعاليتها نظرًا لبعد المسافة وترسخ الوجود الإدريسي في النسيج القبلي المغربي، لجأت الخلافة العباسية إلى أقصى أدوات السياسة الخارجية وأكثرها غدرًا: الاغتيال السياسي. إن إرسال هارون الرشيد لرجله سليمان بن جرير الشماخ، متظاهرًا بالولاء لآل البيت، لاغتيال إدريس الأول بالسم سنة 791م، يمثل اعترافًا ضمنيًا من بغداد بفشل سياساتها التقليدية في احتواء الخطر الإدريسي (ابن الأثير، 1987، صفحة 13/6). كان هذا الاغتيال بمثابة اختبار قاسٍ لمدى نجاح استراتيجيات البقاء التي أسسها إدريس الأول. لقد راهن العباسيون على أن الدولة ستنهار بموت مؤسسها، لكن ما حدث كان العكس تمامًا. إن التفاف قبيلة أوربة، بقيادة الوزير راشد (مولى إدريس)، حول حمل زوجة إدريس (كنزة الأوربية) والمبايعة للجنين في بطنها، إدريس الثاني، هو الدليل القاطع على أن السياسة الخارجية للإدريس الأول نجحت في تحويل الدولة من مشروع فردي إلى مؤسسة راسخة متجذرة في بيئتها (ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 1980، صفحة 89/1) (ابن أبي زرع الفاسي، 1972، صفحة 2). صمود الدولة بعد اغتيال مؤسسها أثبت أن التحالفات الداخلية كانت أعمق من مجرد ولاء لشخص، وأن فكرة الدولة الإدريسية قد أصبحت جزءًا من وعي القوى الفاعلة في المغرب الأقصى، وهو ما مهد الطريق لاستمرار سياسة التمدد وتأسيس العاصمة الجديدة، فاس، في عهد إدريس الثاني، لتصبح مركزًا لدولة استطاعت البقاء والتأثير رغم كل التحديات الخارجية.

الخاتمة

بناءً على ما ذكرناه في هذا البحث ، تتلخص النتائج الرئيسية للسياسة الخارجية الإدريسية في طورها التأسيسي بالنقاط التالية:

1. أثبت البحث أن السياسة الخارجية الإدريسية لم تكن عشوائية، بل كانت استراتيجية مزدوجة قامت على محورين متكاملين: محور دفاعي حذر لضمان البقاء في مواجهة الخلافة العباسية، ومحور هجومي مدروس لتثبيت التمدد في الداخل المغربي.
2. نجحت القيادة الإدريسية عبر التحالفات القبلية والمصاهرة في تحويل القبائل المتناحرة إلى جبهة داخلية متماسكة، شكلت الدرع الحقيقي للدولة في مواجهة الأخطار الخارجية، وحولتها من مشروع فرد إلى مؤسسة راسخة.
3. تمكنت الدولة من تطبيق سياسة مرنة، حيث وازنت بين تجنب الصدام المباشر مع القوة العباسية العظمى، واستخدام الحسم العسكري لتوحيد الداخل، وتأمين الحدود الشرقية (تلمسان)، والقضاء على الإمارات المنافسة التي كانت تشكل تهديداً وجودياً.
4. ويُستنتج أن لجوء الخلافة العباسية إلى اغتيال إدريس الأول لم يكن دليلاً على ضعف الدولة الإدريسية، بل كان اعترافاً ضمنياً بنجاح سياستها في بناء كيان مستقل

مجلة كلية الطف
للعلوم الانسانية والاجتماعية

ISSN (2959-0256)

العدد
6
شهر آب
2027

ومؤثر، وعجز بغداد عن احتوائه بالوسائل التقليدية. ويُعد صمود الدولة بعد الحادثة الدليل الأبرز على نجاح هذه السياسة.

5. كذلك شكل تأسيس مدينة فاس ذروة السياسة التوسعية وتثبيت النفوذ، حيث مثّل الانتقال من دولة التحالفات المؤقتة إلى دولة المؤسسات المركزية، وخلق قاعدة سياسية واقتصادية وعسكرية دائمة ضمنت استمرارية الدولة لعقود تالية.

المراجع:

البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز. (1992). *المسالك والممالك*. تونس: تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري. الدار العربية للكتاب .

اليعقوبي، أحمد بن إسحاق. (1892). *كتاب البلدان*. ليدن: مطبعة برلين.

الناصري، أحمد بن خالد. (1997). *الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى*. الدار البيضاء: دار الكتاب.

ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد. (1980). *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. بيروت: تحقيق: ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال. دار الثقافة .

ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد. (1983). *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*. بيروت: تحقيق: إحسان عباس. دار الثقافة .

شلبي، أحمد. (1978). . *موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

العربي، إسماعيل. (1983). *دولة الأدارسة في المغرب: دراسة في الجوانب السياسية والحضارية*. بيروت: دار الغرب الإسلامي .

مؤنس، حسين. (1987). *تاريخ المغرب وحضارته*. بيروت: العصر الحديث للنشر والتوزيع .

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. (2000). *تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)*. بيروت: تحقيق: خليل شحادة. دار الفكر .

العروي، عبد الله. (1997). *مجمل تاريخ المغرب*. بيروت: المركز الثقافي العربي .

التازي، عبد الهادي. (1987). *التاريخ الدبلوماسي للمغرب*. الرباط: مطبوعات القصر الملكي .

ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم. (1987). *الكامل في التاريخ*. بيروت: دار الكتب العلمية .

ابن أبي زرع الفاسي، علي بن عبد الله. (1972). *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*. الرباط: دار المنصور للطباعة .

إيفاريست، ليفي بروفنسال. (1994). *تاريخ إسبانيا الإسلامية*. القاهرة: ترجمة: علي إبراهيم منوفي. المجلس الأعلى للثقافة.

مجلة هسبريس. (1985). *طرق التجارة الصحراوية وتأثيرها على قيام الدول في المغرب الأقصى* . مجلة هسبريس-تمودا، المجلد 23.

مجلة هسبريس. (2005). *فاس في العصر الإدريسي: التخطيط العمراني والأبعاد السياسية"* . الرباط: مجلة هسبريس- تمودا العدد 40. منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط .

مجهول. (1961). *ذكر بلاد الأندلس (مقتطف من "تاريخ" لمؤلف مجهول)*. مدريد: تحقيق: لويس مولينا. المجلس الأعلى للبحوث العلمية .

الطبري، محمد بن جرير. (1968). *تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)*. القاهرة: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف .

الكندي، محمد بن يوسف. (1908). *ولاة مصر وقضاتها*. ليدن: مطبعة بريل.

عنان، محمد عبد الله. (1997). *دولة الإسلام في الأندلس*. القاهرة: مكتبة الخانجي .

Roger Le Tourneau . (1949) *Fès avant le protectorat : étude économique* . et sociale d'une ville de l'occident musulman. Casablanca: Société Édition'Marocaine de Librairie et d (SMLE)